رحلة شاعر عراقي في الخليج العربي
في القرن التاسع عشر

الأستاذ الدكتور
محمد حسن علي مجيد
الكلية الإسلامية الجامعة ـ النجف الأشرف

رحلة شاعر عراقي في الخليج العربي في القرن التاسع عشر

الأستاذ الدكتور
محمد حسن علي مجيد
الكلية الإسلامية الجامعة ـ النجف الأشرف

المقدمة :ـ

تعد غريزة حب الاستطلاع والسفر والترحل وطلب المعرفة وارتياد المجهول واكتشاف الغريب من أهم غرائز الإنسان لذلك شغف بحب السفر والتجوال ورغب في الاطلاع منذ أقدم العصور. وفي التاريخ أمثلة كثيرة على رحلات متواصلة قامت بها الأقوام عبر الأزمنة والعصور . فقد قام المصريون القدماء برحلات طويلة في الآفاق ، ثم الفينقيون ثم الإغريق فالرومان[١] ثم رحلات العرب قبل الاسلام الى أنحاء الجزيرة العربية وخارجها ، الى اليمن والحبشة والشام والعراق . وحسبنا أن نشير الى رحلتي (الشتاء والصيف) اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم ، مما كان يقوم به في كل عام التجار والرحالة العرب الى جنوب الجزيرة العربية وشمالها ، ثم جاءت رحلات العرب المسلمين الذين جابوا البلدان في مشارق الأرض ومغاربها ، وقطعوا الفيافي والقفار ، وركبوا الأنهار والبحار ، منذ البعثة النبوية المباركة حتى القرن العاشر الهجري[٢] حين قلّت حركتهم ، ودخل السفر والترحال في مرحلة هدوء نسبي ، وذلك بسبب الاجتياح الأجنبي للبلاد ، وخطورة السفر وتخريب الطرق وسوء المسالك وكثرة قطّاع الطرق وفقدان الأمن وفساد الإدارة . وقلة وسائط النقل ورداءة الأحوال الاقتصادية . وبقيت هكذا حتى القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر ميلادي) إذ بدأت حركة الناس تنشط من جديد . وبدأ الرحالة والسواح يستأنفون رحلاتهم في هذا القرن على الرغم من بقاء

السفر يعاني من صعوبة المواصلات ، وقلة وسائط النقل ورداءتها ، وسوء المسالك وفقدان الأمن فإن رحلات كثيرة قام بها رحالة عراقيون وسجلتها كتب التأريخ والأدب ، الى خارج العراق ، ومن خارجه الى داخل ، مما قاموا بها لغرض السياحة والاطلاع أو الترويح عن النفوس ، أو لاغراض شخصية أو تجارية أو سياسية ، وقطعوا خلالها الطرق وشاهدوا المدن وركبوا الدواب والسفن ، هذا فضلا عن الرحلات التي كان يقوم بها الحجاج العراقيون الى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، وسجلوها في مدوناتهم شعراً أو نثراً باسم (الرحلات المكية أو الحجازية) مما حفلت به الكثير من كتب التأريخ والأدب والمجموعات الشعرية المخطوطة والمطبوعة و كان من أشهرها مثلاً رحلة العلامة أبي الثناء الآلوسي (١٨٠٢- ١٨٥٤م) الى الأستانة سنة (١٨٥١ - ١٨٥٣م) التي سجلها نثراً مطعماً بالشعر في سِفر ضخم سماه (غرائب الاغتراب) ، ورحلة حبيب بن طالب البغدادي (ت سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م) ، من جنوب لبنان إلى بغداد سنة (١٢٦٣هـ/١٨٤٧م) التي سجلها الشعراء ، ورحلة الشاعر عبد المحسن الكاظمي (١٨٧٠ – ١٩٣٥ م) من بغداد الى مصر سنة (١٨٩٧- ١٨٩٩ م) . وفيها أيضاً الرحلة الممتعة التي قام بها الشاعر العراقي عبد الجليل البصري (١٧٧٥-١٨٥٣ م) مع لفيف من أصحابه من البصرة في شط العرب ثم في الخليج العربي ، متجهين نحو الجنوب حتى أقاصي البحرين ، ثم العودة معاً الى البصرة ، وسماها (نزهة الجليس) ، استغرقت اسبوعين كاملين ابتدأت من منتصف شهر رجب من عام ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م، حتى آخر يوم منه[٣] وهي قصيدة رجز طويلة بلغت (مئة وثمانية وثمانين) بيتاً ، وصف فيها الشاعر بتفصيل واسهاب ممتعين مراحل الرحلة من ساعة قيامها من البصرة حتى وصوله الى أقصى مناطق البحرين ثم العودة الى البصرة . إن أهمية هذه الرحلة تكمن أولاً في قيمتها العلمية إذ تزود أهل

التاريخ والجغرافية والآثار والأدب وغيرهم بمعلومات قيمة عن وصف المناطق التي رحلوا فيها ، والمدن التي زاروها والآثار التي شاهدوها ، والطرق التي سلكوها ، وأهوال البحر ، وطبيعته وتقلباته التي عانوا منها ، وأزياء الناس وأخبارهم وتقاليدهم التي رأوها ، ومظاهر الطبيعة وعواصف الريح وتقلبات الجو ، وغرائب الحوادث والمحن والمزالق التي تعرضوا لها ، وغير ذلك مما يلذ السمع ويمتع البصر ، كما ثبت المواقع ، وشخص الأماكن وعين الاتجاهات ووصف الموانى ، وذكر العشائر القاطنة على ضفتي شط العرب والخليج العربي في تلك الحقبة من الزمن ، وغيرها من الحوادث والمناظر والمفارقات ، ثم في قيمتها الفنية ثانياً ، إذ تزود القراء بمعلومات قيمة وكثيرة وممتعة وطريفة مما تؤلف رافدا من روافد الفن والمتعة الأدبية ، ثم في قيمتها التاريخية إذ تسجل أخبار الحكام والزعماء المحليين والرجال المتنافسين للسيطرة على المناطق ثم تنقل بعض الحوادث التي وقعت ، والمعارك التي نشبت أو المناوشات التي دارت بينهم نقلاً مباشراً من أفواه أهالي تلك الأصقاع أو من منقولاتهم ، مما يعد وثيقة تاريخية مهمة عن هذه المناطق يمكن أن يرجع إليها المؤرخون عند كتابة تاريخها في هذه المرحلة من الزمن ، فحفظ السيد عبد الجليل بذلك الكثير من المعلومات المهمة التي لولاه لضاعت في أعماق المجهول.

وقبل أن نسير مع الرحلة وحوادثها الطريفة ، نرى أن نتعرف بشكل موجز على الشاعر السيد عبد الجليل البصري ، الذي كتب هذه الرحلة وسجلها شعراً طريفاً ممتعاً .

ولد الشاعر العراقي السيد عبد الجليل البصري سنة (١١٩٠ هـ / ١٧٧٥ م) من أسرة عراقية بصرية موسرة ، كانت تمتلك دوراً وبساتين في البصرة[٤] نشأ وعاش ردحاً طويلاً من حياته في بلاده (البصرة) ، وتوفي فيها سنة

(١٢٧٠هـ/١٨٥٣م). وكانت نشأة الشاعر في مرحلة غير مستقرة من حياة العراق ومنطقة الخليج العربي وما جاورها من بلاد العرب ، بسبب طول مدة السيطرة الأجنبية العثمانية على البلاد العربية ، وضعف سلطة الدولة ، واضطراب نظام الإدارة ، وطمع الحكام ، وتسلط المماليك على العراق منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وتفشي الرشوة ، وشدة العنف والابتزاز ، وشعور الناس بثقل الحياة والحكم ، مما جعل منطقة الخليج بشكل خاص والبلاد العربية الأخرى التابعة للدولة العثمانية ، تعيش في هياج واضطراب مستمرين . ففي هذه المرحلة من حياة الدولة العثمانية نشطت الحركة الوهابية في نجد والحجاز وأطراف البحرين وبعض أنحاء الخليج العربي ، وشقت عصا الطاعة على الدولة ، فأدى ذلك الى الاقتتال المستمر ، سواء بين المناطق والعشائر من جهة ، أو بين أنصار الحركة الوهابية والدولة العثمانية من جهة أخرى . وبسبب كثرة أعمال السيد عبد الجليل ومصالحه في المناطق الممتدة من البصرة حتى البحرين ، وبحكم عمله ومطالب معيشته واملاكه في معظم هذه البلاد ، فقد كان دائم التنقل بينها ، سواء في البصرة التي كانت تحت السيطرة العثمانية أو في مناطق الخليج أو الجزيرة العربية التي انتشرت فيها الحركة الوهابية ، لذلك اضطر السيد عبد الجليل – بحكم مصالحه وأعماله – إلى أن يتصل برجال الحكم من كل الأطراف ويمدحهم ، لتأمين مصالحه لديهم . فهو مع السعوديين حين يكون في نجد وعلى سواحل الخليج وبين الإحساء والبحرين والكويت، ومع الدولة العثمانية وولاتها حين يكون في موطنه وموطن آبائه في (البصرة)، وهو مع أشراف مكة حين يحج الى البيت الحرام ، ومعلوم ان أشراف مكة والدولة العثمانية خصوم للدعوة الوهابية، لذلك خلا شعره ونثره السياسي من صدق اللهجة وحرارة العاطفة واستقامة المبدأ، لأنه لم يكن ينظم في مدح الوهابيين أو السعوديين أو العثمانيين بدافع ديني أو

اعتقاد حقيقي أو ولاء سياسي ، ولم تكن مواقفه في تأييد الطرفين ولاسيما الوهابيون – الذين أكثر من مدحهم – بوحي من عقيدة ، بل بدافع الخوف أو الطمع لأنه كان حضرياً لا يقوى على مواجهة البدو ولا يطيق خشونتهم(٥) لقد تجول السيد عبد الجليل في كل بقعة من بقاع الخليج العربي وعاش فيها وتنقل بين أرجائها واتصل برجال الحكم فيها وبأعلام الفكر والعلم والأدب من أهلها ، لذلك جاء شعره في أغراضه المختلفة مرآة لعصره وأهل العصر .

أما اتصالاته الأخرى فقد كان على اتصال دائم بعلماء عصره وأدبائه ، لذلك عكس شعره من جانب آخر نوع تلك العلاقات ، وصورة لها من اتصاله بالعلماء والأدباء ورجال السياسة ، فهو إذن يمثل لوناً من ألوان الأدب العراقي في تلك الحقبة من حياة العراق والبلاد العربية .

لقد كان أكثر ما يشغل بال السيد عبد الجليل في حياته ما كان يسميه : المظالم المضروبة من الدولة العثمانية على نخيل وأملاك له موروثة في البصرة عن جده (السيد جليل) ومما كانت تلزمه الدولة العثمانية في وقتها من أداء ضرائب عالية عليها في كل سنة ، مما كان لا يطيق دفعه ، أولاً يود دفعه مما يراه (مظالم) لا حق لهم فيها ، لأنها ليست من أملاك الدولة وبساتينها أو مستأجراتها ، إنما هي أملاك (صرف) خالصة له ، بأوراق وسندات رسمية لا مجال للشك فيها ، أو ابتزاز وارداتها ، أو فرض الرسوم أو الضرائب الثقيلة عليها ، وهذا ما كون هاجساً دائمياً له ، فكان مرة يمتنع عن الدفع ، وأخرى يطلب التسوية والتقسيط ، والثالثة يطلب التخفيف ، ورابعة يرفع برسائله الى الحكام يوضح لهم المظالم التي يوقعها جباة الضرائب عليه ، وعلى أملاكه مما ليس لهم حق فيها . ففي سنة ١٢٤٣هـ رفع الى الوالي داود باشا والي بغداد رسالة في هذا الموضوع شرح فيها مظالمه ومطالبه ، وقد اعتنى بديباجتها كثيراً ، لأنه يعرف تضلع داود باشا بالشعر وعنايته بأساليب

التعبير، سماها (ثناء سمط الدرر)[٦] وخامسة يرفع القصائد الى الحكام والمسؤولين يمدحهم فيها ، ويصوّر حاله وكثرة عياله وضيق ذات يده ، ويطلب منهم مساعدته واعفاءه مما يفرض عليه رجال الضرائب وكثيراً ما كان المسؤولون يلبون طلبه ويأمرون بتخفيف الضرائب عنه أو إلغائها ، لكن موظفي الضرائب كانوا كثيرا ما يعودون اليه بعد مدة لمطالبته واستيفاء الضرائب منه . ولما تولى السلطان محمود الثاني السلطة سنة ١٨٠٨م كتب الشاعر له رسالة مطولة ، هنأه فيها وشرح مظالمه وطلب اعانته ، هذا السلطان هو الذي أمر الوالي داود باشا بالعمل بالفرمان السلطاني السابق الصادر باسم جد الشاعر (السيد جليل) (الذي يتضمن رفع جميع المظالم عن أملاكه وأملاك أولاده وأولاد أولاده ولا يؤخذ عليها خراج إلاّ الخراج الشرعي)[٧] وعليه تقرر إعفاء أراضي الشاعر ونخيله من الضرائب ، فكف عنه ولاة الأمور في البصرة ، وتركوا مطالبته ، بل وأعادوا إليه ما أخذ من الرسوم الأميرية الزائدة التي سبق أن استوفوها منه[٨] وكان الشاعر قد رفع إلى الوالي داود باشا في السنة نفسها مع رسالة السلطان رسالة فيها نسخة من الفرمان السلطاني المذكور ، فأمر الوالي بناءً على أمر السلطان بإلغاء المظالم عن تلك الأملاك فأرسل على أثرها للوالي قصيدة أخرى مدحه فيها وشكره عن حسن صنيعه وهكذا كان يعود الى البصرة كلما أن أوان الزرع أو حل موسم الحصاد أو حل عليه خراج أو سمع بمسؤول يزور البصرة أو تتاح له الفرصة لمخاطبة الحكام وإلاّ فهو متنقل بين البصرة ومناطق الخليج ، ولاسيما منطقة (الزبارة) في الشمال الغربي من شبه جزيرة قطر التي كان له فيها بيت آخر وزوجة ثانية[١٠] ويبدو أن هذه الثانية كانت هي الأثيرة لديه لأنه كان يقضي الكثير من أيام السنة فيها ، فضلاً عن مصالحه وأعماله في منطقة الخليج والبحرين ، ولكن لا تكاد تمر سنة من غير أن يحضر إلى البصرة ولاسيما أيام

موارد الزرع وقطف الثمر وقص النخيل ، واستلام المحاصيل بعد أن يقضي فيها مدة من الزمن ، يرى فيها أهله ، ويتفقد أملاكه ، ويتصل بأهل البلاد وعلمائها وشعرائها ووجوهها وحكامها . منها مثلا زيارته الى البصرة سنة ١٢١٧هـ وبقي في قرابة عام كامل ، وفي سنة ١٢٣٣هـ عندما زار البصرة أرسل رسالة مطولة إلى قاضي البصرة السيد عبد القادر أفندي بن صبغة الله الحيدري عندما لم يتسن له الاجتماع معه لكثرة مشغولياته فأرسل له رسالة اعتذار ، كما أرسل سنة ١٢٣٤هـ رسالة عتاب الى الشيخ عثمان بن سند الوائلي البصري أحد وجهاء البصرة وعلمائها ومؤرخيها[١١] لأن الأخير لم يقم بزيارته عندما كان في البصرة وفي سنة ١٢٥٣هـ اجتمع بوالي بغداد علي رضا باشا عندما كان الوالي في البصرة بعد فتحه المحمرة ، فهنأة الشاعر بهذه المناسبة بقصيدة ، وأجاب الوالي بالمقابل جميع مطالب الشاعر من إزالة ما على بعض أملاكه من الخراج[١٢] وفي مناسبة اتصال الشاعر بالوالي في هذه المناسبة كان مع الوالي علي رضا وفي حاشيته الشاعر العراقي الكبير عبد الباقي العمري الموصلي ، الذي كان يعمل معاوناً للوالي (كتخدا) فاجتمع معه الشاعر عبد الجليل ، وبذلك اجتمع أديب الشمال وأديب الجنوب وانعقدت معه صداقة ومودة وتبادلا بعد ذلك الرسائل والاشعار .

وصف الرحلة :

قلنا : من الرحلات (الشعرية) الممتعة التي سجلها الأدب العراقي في القرن التاسع عشر ، رحلة بحرية قام بها الشاعر عبد الجليل البصري في الخليج العربي وجزر البحرين ، مع لفيف من أصدقائه ، ثم العودة معاً الى البصرة، سماها (نزهة الجليس)، وقد استغرقت أسبوعين كاملين ابتداءً من منتصف رجب عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م حتى آخر يوم منه[١٣] وهي طويلة بلغت ١٨٨ بيتاً .

ففي بداية الرحلة حدد الحركة وزمنها ، وذكر واسطة النقل التي اعدوها

للابحار ، والأسلحة التي حملوها للدفاع عن أنفسهم عند الحاجة ، ثم مجموعة من الكتب المتنوعة في الفقه والتفسير والحديث والأدب التي اصطحبوها معهم مما يشير إلى أن الجماعة السائحة كانت تعرف ان الرحلة قد تطول ، فلا بد إذن من استغلال الوقت والإفادة من الزمن فحملوا معهم الأسفار للدراسة الإفادة وهذا يدل أيضاً على أنهم كانوا من أولى العلم والفضل ، والأدب والمعرفة .

بدأ الشاعر قصيدة الرحلة بالاستغفار والدعاء والتعريف باسمه ونسبه – على طريقة العصر – في خمسة أبيات – أولها قوله :

((قال الفقير المذنب الجاني الاقل　　　عبد الجليل ذو الخطايا والزلل))

وفي الأبيات السبعة التي بعدها تهيأ الشاعر للرحلة ووضّح مباهج السفر وفوائده ، ولذاته ، وما فيه من متعة وأنس واطلاع ، لاسيما في حالة اجتماع الأصحاب والأحباب في رحلة واحدة .

وفي البيت الثالث عشر وما بعده يبدأ الشاعر بوصف حركة الرحلة وحدّد وقتها وذكر الفصل الذي حدثت فيه ، وأرّخ لها :

صبح الخميس النصف من شهر رجب　　　في خامس الحوت وذا فصل يحب

في سنة في ضبطها أرخنا　　　(عني للنزهة قد خرجنا)

١٢٤٢هـ

ثم يستمر في وصف رفاق السفر وما فيهم من لطف النفس وحسن المعشَر وانعدام الثقيل فيهم ، في تسعة أبيات ، أولها قوله :

في رفقةٍ غُرِّ الوجوه كُمّل　　　ما فيهمُ إلاّ فصيح المقول

قــوم كــرام مــن كــرام تنمــى ممــن زكــا خــالا وطــاب عمــا

بعدها يتحول الى وصف الخدم الذين أخذوهم معهم ، وما كانوا عليه من صدق الخدمة وخفة الروح وسهولة الطبع وامتثال للأمر ، قال في أولها عنهم :

غلماننــا كــلٌ خفيــفُ الــروحِ لا ينفــك في بشــر وطبــع ســهلا

ثم بعدها يصف الأسلحة التي احتاطوا بها للطوارئ ، فكانت متنوعة من سيوف وبنادق :

ســلاحنا الأســياف والبنــادق وبالرمايــة الجميــع حــاذق

ثم يذكر الكتب وأسفار المعرفة التي حملوها معهم وهي متنوعة من فقه وتفسير ولغة وأدب ، قال في أولها :

وقــد صــحبنا معنــا الأســفارا نقطــف مــن أســفارها أزهــارا

أما مواكب الرحلة فقد تألف من قاربين مصنوعين بدقة ومحفوفين بالعناية :

قــد امتطينــا قــاربين حفــاً بحســن تسـير الالــه لطفــا

قــد أُحْكِمَــا صــناعةً وعــدةْ أســرع مــن طــرف تطيــل مــدةْ

وكانت الريح ساعة الحركة مواتية لطيفة ، تحرك القوارب وتدفعها بلطف وهدوء على سطح الماء :

لمــا ركبنــا كانــت الــريح لهــا تحــرك مطابــق للمنتــهى

ســرنا علــى اســم الله في مجراهــا كــذاك باسمــه علــى مرســاها

وحين صارت المراكب تتهادى في شط العرب كأنها العرائس في موكب زفاف لاحت مناظر النخيل الباسقة وينابيع المياه المتدفقة ، وأشجار الكروم الوارفة، وأنواع الأثمار المتدلية الشهية القريبة المجتنى لكثرتها وانخفاضها ونضجها . قال في أولها :

تـرى بهـا النخيـل باسـقات ... مـن كـل نـوع لـذ للجنـاة
فيهـا الينـابيع ميـاه قـد جـرت ... في برهـا وبحرهـا تفجـرت

حتى يصل الى مناطق البحرين وجزرها ، فيتحدث عنها منطقة منطقة ، ويصفها جزيرة جزيرة ، وصفاً دقيقا مفصلا يدل على شدة تأثره بمناظرها واندماجه بمشاهدتها ، وشعوره بالسعادة والارتياح فيها وانشراح صدره بألوانها وأنواعها ،ودخوله حالة من التأمل والدهشة مما يرى فوصفها من داخل نفسه ، مع دقة في تثبيت المواقع ، ومقدرة في تحديد الاتجاهات وتوضيح لسير الرياح ، وصعوبات البحار ، ثم وصف كل ما وقعت عليه عيناه من أناس وأفراد وعشائر، ورجال ونساء ، وحوادث وطرائف ، ومادعوا له من طعام وما قدم لهم من شراب ، وما أُحيطوا به من كرم وضيافة من سكان الخليج وأهل المضارب ، ثم لا يفوته أن يصف كل ما شاهد من خضرة وماء ، وأرض وسماء ، وأمواج وعواصف وهم يسيرون بقواربهم التي تجري فوق مياه البحر وما تعرضوا له من محن ومزالق وما شاهدوه على جانبي الشط والخليج من مبانٍ وقلاع ، كل ذلك في وصف نسخي ممتع فيه الكثير من دقة النقل وطرافة التصوير ومطابقة المشاهدة مع التشويق بالحديث وإطالة في السرد وحبكة في الأسلوب وصدق في التجربة ووضوح في اللغة والحسن في المعاني مما يمكن أن يعد وثيقة تاريخية ونادرة علمية وتحفة أدبية ، لولا قلة في الخيال واسهاب في السرد .

فبعد دخول الشاعر ورفاقه في رحلتهم هذة مياه البحرين يبدأ بوصف أهلها وحكامها من (ال خليفة) وما فيهم من نخوة وشهامة ، وكرم وعناية بالضيف ورعاية للنزيل ويصف كرم أحد وجهائها الشيخ (بخاخ) : قال في قسم من ذلك :

فمـذ نزلناهـا ضـحى النـهار ... في دار (بخـاخ) بـلا اسـتقرار
أم الوفـود نحـوه أفواجـا ... رفـاده قـد قطعـوا الفجاجـا
عـاش بـه الجـار علـى الوقـار ... في منعـة وعـزة الجـوار
ومعشـر شـم تعاقـدوا علـى ... حسـن السـجايا واكتسـاب للعـلا
(ال خليفـة) عظـام الفخـر ... مـن كـل قـرم ماجـد غضنفـر

بعدها يصف جزر البحرين وأجواءها حتى يصل الى جزيرة (جو) اللطيفة : فيقول في قسم منها :

وقـد غنمنـا نزهـة (الجزيـرة) ... سـرنا الى (جـو) بحسـن سـيره
وقـد وردنـا منـهلا مستصـفى ... فيـه مريئـاً سـكرياً أصفـى
ثم ارتحلنـا الصـبح للجنـوب ... فـزاد فينـا الـريح بالهبـوب

وإذ يسير الركب بهم بين تلك الجزر ويتنقل بين الديار ، وما أن وقعت عيونه على بعض نسائها وما فيهن من حسن وملاحة وفتنة وصباحة حتى تسبيه العيون الساحرة والقدود الفاتنة واللمى المعسول ، فيصف جمالهن بانبهار وعجب ، حين يقول في قسم من ذلك :

دار الربـات الحجـال الخـرد ... مـن كـل هيفـاء بقـد أميـد..
ذات اللمـى المعسـول والثغـر الشـنب ... وعقـرب الصـدغ لمضـناها تـدب

ويخبرنا الشاعر بعدها ، بأنه مر بعد ذلك بديار كانت عامرة بأهلها ونسائها ولكنها صارت بعد ذلك مسرحاً لمنازعات قبلية ومعارك محلية بين زعمائها والطاكعين فيها ، حتى آلت معالمها إلى الخراب بعد أن اضطر أهلها للهجرة منها ، فأمست خاوية خالية ، لا تأوي إليها غير الضباع والضباب (جمع ضب) والذئاب وحيوانات البر :

فأصبحت اطلالها تسائل ... أين الدمى وهاتك الخلاخل

قضى عليها الدهر بالخراب ... حتى غدت مساكن الضباب

ومع وحوش البر التي استوطنت تلك البقاع كان هنالك الصيادون الذين يشاركونها السكن ، ويبدو أنها كانت منطقة ممتازة لصيد حيوانات البر وحيتان البحر ، وحيوانات الغابات ، ويخبرنا الشاعر أنه رأى فيها مجموعة من الصيادين الماهرين في فن الصيد الذين يحذقون أساليبه ، ويتقنون نصب شباكهم ويعرفون أجناس الصيد وأشكاله وأسماءه ومواسم تكاثره وصيد كل نوع من أنواع الأسماك أو حيتان البحر أو حيوانات البر والغابات التي يرصدونها والذين يقدرون على تحديد حركتها والظفر بها في عمليات الصيد ، وذلك مما يدل على مهارة عالية في الصيد ، وقدرة كبيرة من لدن أبناء الخليج في هذه الصناعة العريقة التي حذقوها وعرفوا بها منذ أقدم الأزمان قال في قسم من ذلك :

سوى فريق حل منها ناحية ... وكلهم في الصيد هاد داهية

مميز الاجناسِ والأنواع ... في سرد أسماها طويل الباع

لا يجهل الحيتان فرداً فردا ... يعرف بدءا صيدها والحدا

يقول هذا النوع فصله دخل ... يرى غدا وسط الشباك قد حصل

وبعد إقامتهم في تلك الأصقاع أياماً ثلاثة نالوا فيها قسطاً من الراحة ومن أولئك الصيادين تقديراً وحفاوة على طريقة كرم أهل الخليج المعروف، واصل الركب الرحلة الى الجنوب وكانت مسيرة عاصفة :

بتنا ثلاثا فيه بالتوالي لعبرة بها تلك الاطلال

.....

ثم ارحلنا الصبح للجنوب فزاد فينا الريح بالهبوب

حتى تجاوزنا ضحى حد (الجمل) هناك أرسينا بمنزل يمل

في فقرة ليس بها أنيس ولا يعافير وليس عيس

.....

ثم قطعنا منتهى البحرين صبحا، وجري الريح بالهويني

حتى نزلنا الراس (للعياش) من غير ازعاج ولا انكماش

وأصبح الضباب كالنساج بردا يمده على الفجاج

ولا تخفى على القارئ الكريم هذه الصورة الطريفة التي كونها الضباب من تكاثفه وشدته حتى بدا وكأنه برد كبير منسوج ممدود على كل الوهاد والفجاج:

وقد تركنا ذلك المكانا وغيره نمته قاربانا ....

حتى تجاوزنا الى (دوباس) في ربوة بتنا شمال (الراس)

حينذاك ارتاحت نفوسهم وانشرحت صدورهم لحسن المكان وطيب الهواء وجمال الطبيعة :

يــا حســنه مــن بنــدر مقــارب	حبـل الخبـاء عنـد حبـل القـارب
أرض بهـــا تنشـــرح الصـــدور	عنــها تقــول الصــحب : لا نســير
في رحلـــة كأنهـــا الدهنــــاء	طيبـــة لــذ بهـا الثـــــواء
رياضـــها تحفهـــا الكثبـــان	ينبـــت فيهـــا الشـــيح والحـــوذان
فيهـــا كثيـــب زان بارتفـــاع	تنظـــر منـــه غالـــب البقـــاع
يــا طيــب ليلــتين قــد بتناهمـــا	في هاتــك الربــوة مــا اهناهمـــا

بعدها يستأنفون الرحلة بعد تلك الاستراحة الهانئة ، لولا ما عكر مزاجهم في نهايتها من قبل بعض الصيادين الذين ضايقوهم ، ويسرد قصته معهم فيضطرون لمواصلة السير :

ثم ارتحلنـــا الصـــبح للشـــمال	نطـــوى قـــرى الســـاحل بـــالتوالي
نقــول ذي (الــزلاق) قلعــة الصــدد	تنظرهـــا مـــن ســـبد ومـــن لبـــد
لم يكـــن الســـاحل ذا ابتعـــاد	ملاحنـــا يجيـــب نجـــوى الحـــادي
وذلـك النـهار قلنـا فـــي (العقـــ	اريـــة) المقيـــل لم يطـــــق
فيهـا البعـوض صـائل والساحـــل	في الـــنتن ذاك مســـتراح ســـائل

ولكنهم لم يطيقوا البقاء فيها ، فارتحلوا حتى جزيرة (سلس) التي كانت أكثر راحة وأقل بعوضاً ، وأناسها أهل كرم وضيافة وقدم لهم الخادم (بشير) كل ما لذ وطاب من الطعام فقال :-

مبيتنـــا كـــان برمـــل (ســـلس)	بخـــير موضـــع لطيـــف ســـلس
أنـــزه سبســـب مـــن الصـــحاري	في قـــرب جـــدول زلال جـــاري

فيها (بشير) جاء بالمطعوم — كل لذيذ ساغ في الحلقوم

وبعد (الزلاق والعقارية وسلس) يعبرون نحو الجزيرة (أم نعسان) التي رأى فيها العجب من المناظر والينابيع وكهوف وجبال واحواض ومياه ومغارات ومراع وغيرها مما رأته عينه والتقطته عدسة بصره وسجله قلمه :

و (أم نعسان) نحوها عبرنا — وقد رأينا وضعها اعتبرنا

شاطئها غربا به كهف جبل — بطوله يقطر ماء للنهل

يجري الى البحر وينبت القصب — بينهما ، وذاك من أوفى العجب

في الكهف حوض فيه صب الباردا — منه ارتواء من يمر واردا

وفيه كم مغارة مظلة — ليست على الداخل بالمضلة

وبعضها يشبه نحت العمل — وموضع الباب مع القفل جلي

حوض مربع أتى في ذروته — يجرى السيول قاصدا لوجهته

فيها مراع شملت أكنافها — تغني ولما تبلغن أطرافها

ويسهب الشاعر في وصف (أم نعسان) وأهلها وأجوائها ، حتى يتركها فيتحرك مع الركب حين يتحرك بين جزائر الخليج المبثوثة في البحر ، وما فيها من مياه وطيور :

ثم تركناها أتى المسير — بين جزائر بها الطيور

مابين واقع بها أو طائر — قاطنة بهاتك الجزائر

ترتاع من شدة جري الماء — تضيق مجرى هاتك الأرجاء

وإذ هو يسير بين هاتك الجزائر والمياه والمجاري والطيور وتتقاذف سفنهم أمواج البحار وحيتانه إذا هو يصل الى مَعْلَم مهم من معالم الرحلة ، وهو (قلعة) عالية ، فوجدها كبيرة شامخة حين نزلوا فيها بعد ذلك العناء ، إنها قلعة شاهقة ، ضخمة البناء، بديعة الطراز ، مهيبة المنظر ، فخمة الشكل ، عالية الأطراف ، فيها أشجار وارفة ونخيل عالية ، وثمار دانية ، وفاكهة متدلية، وأزهارها متنوعة ، ومياه ساقطة ، وجداول متسلسلة ، وسواقٍ جارية ، كما دل منظرها العظيم ، وطريقة بنائها على قدمها وانها من شدة ارتفاعها تطاول السماء ، وان بناء أسوارها بذلك العلو الشاهق إحاطتها بخندق عريض المساحة عميق الانحدار يوحي أو يدل على أن هذه القلعة بنيت لأغراض دفاعية ، وشيدت تحسباً للطوارئ وحماية أهلها ومنطقتها من هج الأعداء ومباغتتهم لها ، كما أشار الشاعر إلى ما في القلعة من قصور ومن (عجائب المباني) وكثرتها ، مما يدل على (علو شأن الباني) كل هذا أثار عجبه ، وملك عليه دهشته ، وانبهر به ، فوصفها وصفاً ممتعاً طريفاً مسهباً دل على اندماج الشاعر بالمنظر وتأمله له ، ويبدو أن (القلعة) هذه كانت معروفة له، ولأهل تلك الديار ولأبناء مدينته البصرة ، فلم يسمّها ، ولم يذكر موقعها بضبط ، لذلك سماها (القلعة) بصيغة التعريف من غير نسبة الى مكان . ومن أبياته التي وصفها بها ، البيت الآتي :

حتى نزلنا في فناء (القلعة)   والنخل حولها أبان طلعه

وهنا يتضح (الفصل) الذي كانوا مسافرين فيه ، وهو أبان ظهور (طلع النخيل) أي أوائل الصيف :

أشجارها تنوعت أزهارها   غنى على أفنانها هزارها

كأنما الاترج في الأوراق شب   في خيمة خضرا قناديل ذهب

والمـاء جـار قـد صـفت جداولـه　　　واسـتعذبت لـوارد نواهلـه
منظـر هـذي القلعـة العظيمـة　　　تعـرف منـه أنهـا قديمـة
أركانهـا محكمـة البنـاء　　　بطرفهـا تشيـر للسمـاء
صـخورها منحوتـة مربعـة　　　عظيمـة السـمك بطـول وسـعة
فسيحة بديعـة التفصيـل　　　يقصـر عنـها الوصـف بالتطويـل
حـاط بهـا سـوران ثم الخنـدق　　　يعجـب راء عرضـه والعمـق
قصـورها نـاءت عـن التقصيـر　　　وقـد زهـت بزخـرف التعميـر
تـرى بهـا عجائـب المبانـي　　　دلـت علـى علـو شـأن البـاني

ويستمر الشاعر في وصف محتويات القلعة وقصورها ومبانيها واشجارها مما يعبر عن شدة اندهاشه بروعتها وفخامة بنائها ..

ويبدو أن (القلعة) هذه كانت المحطة الأخيرة في رحلة الذهاب وانها بلغت في الوصول إليها نهايتها وانها حققت غايتها ، حين بلغت أقاصي البحرين ، حينئذ تبدأ (رحلة العودة) ووصفها ، ولكن مع بعض الاختصار لأن الكثير من معالم الرحلة والأرض والمشاهد كان قد ذكرها في رحلة الذهاب فلم تعد هناك حاجة الى تكرار وصفها ، فصار يصف في رحلة العودة ما فاته في رحلة الذهاب ، أو ما استجد فيها ، مع بعض الاختصار .

قال في وصف بعض معالم رحلة العودة :

وبعـد مـا ملنـا الى الرجـوع　　　للأهـل قبـل آخـر الأسـبوع
هـب علينـا عاصـف الشـمال　　　فلـم نجـد وجهـا للارتحـال

ثم توجهنـــــا إلى الـــــبلاد   بخـــير حـــال مقتضـــى المـــراد

وكان الوصول الى البصرة في :

في ضحوة الخمـيس منتـهى رجـب   عـــدنا الى المكـــان إذ نلنـــا الأرب

بـــه انتـــهت رحلتنـــا الميمونـــة   بطـــالع السعـــد أنـــت مقرونـــة

سميتـــها (بنزهـــة الجليـــس)   حيـث بـدت بديعـة التأسيـــس

ولابد في ختام (قصيدة الرحلة) من تقاليد (أدب الرحلات في ذلك العصر) من شكر الله والحمد له ، على سلامة العودة والتوفيق لما تمكنوا منه ، وما غنموا فيه من تجارة ومتعة أو غنائم أو هدايا ، فيسير الشاعر البصري على تقليد (أدب الرحلات) فتختم الرحلة بشعر الثناء والشكر والاستغفار والدعاء ، على ما أنعم الله عليهم في أثنى عشر بيتاً فيها عرفان وشكر وثناء ، قال في بعضها :

وبعـــد ذا اســـتغفر الله الـــذي   لم نـــر غـــير عفـــوه مـــن منقـــذ

يـــا مالـــك الملـــك ويـــا ربـــاه   يـــا ســـامع العبـــد إذا دعـــاه

أغـــث عبيـــدا خـــاف مـــا جنـــاه   إذ لم يخـــالف لحظـــة هـــواه

والطـــف بنـــا في كـــل مـــا تقـــدر   وعافنـــا مـــن كـــل أمـــر يحـــذر

واعـــف عـــن الأبـــاء والجـــيران   وعـــم بـــالعفو ذوي الاحســـان

وهكذا ينهي الشاعر هذه الرحلة الممتعة حاولنا فيها أن نقف على أطرف ما فيها وألطف مشاهدها ، مع تمثله هذه الرحلة من العلاقة الوشيجة التي كانت معقودة بين أبناء الخليج العربي وقوة الأواصر ودوام الصلة ، ابتداءً من

البصرة حتى أقاصي الخليج ، مما دل على رابطة قومية منذ أقدم العصور.

هوامش البحث ومصادره

(١) ينظر عن تلك الرحلات وازمانها : (ادب الرحلات – احمد ابو سعد) دار الشرق الجديد – مط الارشاد – بغداد ١٩٦١ ص ١٧- ٢٦

(٢) ينظر عن نشاط العرب والمسلمين في مجال الرحلات في هذة المرحلة : (أدب الرحلات عند العرب في الشرق) علي محسن مال الله – مط الارشاد – بغداد ١٩٧٨ كما حفلت كتب التاريخ والادب بنشاطهم وتحدثت عن رحلاتهم ،

(٣) انظر : ديوان عبد الجليل البصري – المط السلفية – بمصر ١٣٨٦ هـ - ص ٣٧

(٤) انظر مقدمة ديوانة

(٥) انظر ترجمته في مقدمة ديوانة بقلم الناشر – وفي (الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر – علي علاء الدين الالوسي – تحقيق جمال الدين الآلوسي – د. عبد الله الجبوري ص١٥١ -١٥٢ ، وفي (الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر – ابراهيم الوائلي ط٢ ص ٢١٠-٢١٤ ، وفي تاريخ الادب العربي في العراق -عباس العزاوي ٢٣٥/٢

(٦) انظر- ديوانه – ص ٧٥ -٨٩

(٧) الديوان ص٥٤

(٨) المصدر السابق ص:ي

(٩) المصدر نفسه ص ٦٦- ٦٩

(١٠) انظر- ديوانه – ص١

(١١) وهو صاحب كتاب (مطالع السعود) المشهور

(١٢) انظر- ديوان السيد عبد الجليل البصري – ص ٩٠- ١٠٨

(١٣) المصدر السابق ص٣٧

(١٤) انظر : الرحلة كاملة في ديوان الشاعر عبد الجليل البصري ص ٣٧- ٤٦